

قصة هذه الفصول

✍ ... كنت مولعا بشوقي منذ الطفولة، حفظت الجزء الثاني من ديوانه، لأنه هو الذي وقع في يدي من مكتبة جدي العالم الأزهري، خلال حفظي للقرآن الكريم، دون أن يختلط على الأمر - ولم أزل في الثامنة من عمري - فاعتبرته معجز الشعراء، وأخذت أقيس عليه بعد ذلك أقوال الشعراء الآخرين، وحين بدأت أنظم بعض الأبيات، شأن كل الصبية في جيلي من الحفظة لتراث الأدب، قلت لنفسي: هل يمكن أن أتفوق على شوقي؟ ولما كانت الإجابة القاطعة بالنفي أصدرت أول حكم نقدي في حياتي بالفطام عن قول الشعر هيبة منه واعترافا بعظمة الأمير، ولم يتحول هذا الشعور نقمة أو ثورة عليه بعد ذلك، بل ما زلت أحمد له أن عصمنى من اقتراف هذا الذنب الأدبي الذي يعمى عنه كثير من النقاد؛ فيكتبون شعرا دون مستواهم الفكري والإبداعي.

ولقد لعبت أم كلثوم بعد ذلك دور المرضعة في تغذية خلايا عقلنا ووجداننا بقصائد شوقي عن طريق السماع الذي يضاعف أثر القراءة البصرية ، ولا بد أن ألحان السنباطى قد أكملت إيقاعات شوقي وأغلقت دائرة سحره، وما دمت في مجال الاعتراف الشجى بهذا التأثير العارم لشعر شوقي على تكويني المزاجي فقد كنت لا أدرك سر شغفي الشديد برأئته:

سلوا قلبي غداة سلا وتابا

لعل على الجمال له عتابا

ويسأل في الحوادث ذو صواب

فهل ترك الجمال له صوابا

حتى تبينت بعد ذلك أن عشق الجمال الذي فصله الخيام هو الجرثومة التى زرعها شوقي ورواها زكى مبارك وألهبتها دراسات الأدب والفن في صميم روحى التائقة حتى اليوم، وكم تأملت من نقد العقاد وتجاهل أدونيس لأهمية شوقي وإنكارهما التام لقيمته ، واعتبرت ذلك غير مبدعين لو امتثلوا بالإعجاب مثلي لكفوا عن التحدي والإنجاز.

أشبع مؤرخ الأدب العربي العظيم شوقي ضيف، الذي كان سميّه وراهبه، حياة شوقي بحثا ودراسة عندما جعله "شاعر

العصر الحديث"، وتلاه تلميذه الجليل أحمد الحوفي بكتابه البليغ عن "وطنية شوقي" وجاء الدكتور صبري السربوني بالخفى من تراث شوقي عبر حفريات مضيئة كشفت عن "الشوقيات المجهولة"، وتتابع البحوث والدراسات المضيئة والكاشفة بالمنظور التاريخي والتوثيقي عن حياته وشعره، لكن ظلت هناك بؤرة مكثفة لم يقترب منها أحد، وهى التي أغرتنى بكتابة هذه الفصول في مراحل متتالية من "ارتحالاتي" النقدية، تتمثل على وجه التحديد في سؤال مركزي: ما هو سر شعرية شوقي التى صنعت عصرا أدبيا كاملا، وغذت أذواق أجيال متتابعة، وأجبرت أدباء العروبة على الإغضاء عن تنافسهم الشرس وتنصيبه أميرا للشعراء؟

ولا أزعم أن محاولاتي للإجابة عن هذا السؤال في تلك الفصول شافية، لكنها بمثابة مقاربات وجيزة للامح محددة من هذه الشعرية الفائقة بمنطق عصرها، والتي افتتحت ديوان الحداثة العربية بعدد من الإنجازات، أهمها:

- وضع الشعر العربي في مركز الحياة العامة، بامتلاك خطاب النهضة، وبلورة منظومة القيم المعاصرة والتطور بها إلى درجة عالية من النضج والعصرية.

- تبنى الحيوية الدافقة الجديدة في لغة الشعر، والإسهام في صناعة أدوات الاتصال الجمالي بالجماهير القارئة، واعتماد الغناء سييلا لذلك.

- فتح باب المسرح الشعري على مصراعيه، وتشقيق الشعرة الدرامية في صلبه، وإكمال هذا النقص الفادح في الشعرية العربية، وحفز الأجيال التالية على تنميته.

- إنشاء أدب الأطفال في الثقافة العربية، والإفادة من تجارب الآداب العالمية في تربية النشء وتغذية وجدانهم وتعويدهم القراءة والتواصل الإبداعي.

وقد كانت أولى مقارباتي النقدية لشعر شوقي محفوفة بالمخاطر، فقد كنت مع كوكبة من رفاقي في الوطن العربي نحاول إحداث نقلة نوعية في المناهج النقدية التاريخية والاجتماعية والنفسية السائدة، فأردت أن أقدم برهانا عمليا على كفاءة المنهج البنيوي الذي أدعو إليه في الكشف عن القيم الشعرية الحقيقية وفض أسرار الإبداع وقراءة تقنياته الفنية، فاخترت نصا شعريا جميلا - لعله أشهر غزليات شوقي - كنت مفتونا برشايقه، وأجريت عليه هذه التجربة المثيرة، القراءة بمناهج متعددة، مع تبنى كل منهج واعتصار قصارى ما يمكن أن يبلغه في إضاءة النصوص، لكنني

للأسف قدمت لهذه التجربة بمقدمة نظرية ثقيلة الوطاء على القارئ عن "إشكالية المنهج في النقد" وكانت كافية لأن تصرف القارئ عن متابعة التجربة التطبيقية الشيقة، وتأتي مناسبة هذه الفصول كي أنتقم من تلك المقدمة النظرية وأطرحها جانبا لأتيح الفرصة للقراء كي يختبروا لذة التأمل في حركة المناهج وهى تكشف النقاب عن جمال الشعر الخارجي حيناً، والباطني الحميم حيناً آخر.

وحدث بعد ذلك أن دعيت لإلقاء محاضرة عن "خطاب النهضة العربية" فوجدت شعر شوقي أفضل مختبر لتشكيل هذا الخطاب وتحديد عناصره، وحينئذ أدركت كيف أسهم في صناعة القيم العصرية في الفكر والثقافة.

وعندما قرأت تجربة العالم الصديق التونسي الدكتور محمد الهادي الطرابلسي عن الشوقيات وتناولها بمنهج أسلوبى وبلاغى متكامل حفزتنى على أن أجرب نسقا آخر من الدراسات الأسلوبية النقدية يطمح إلى اقتناص الظواهر الكلية وبلورة الخواص المميزة للشاعر التى تجعل لقصائده مذاقا مختلفا عن غيره وتنحصر في الذاكرة باعتبارها طريقته المائزة التى تشكل ملامح بصماته التعبيرية.

وكنت أعرف شغف شوقي بالمتنبى منذ أن حكى عنه الأمير شكيب أرسلان من أنه لقيه في مرحلة الشباب في باريس فوجده يتأبط ديوان المتنبى، فأحبت أن أوازن بينه وبين شاعره المفضل في حديث كل منهما عن العيد. لكن معارضات شوقي البديعة التى نافس فيها أبا تمام والبحري وابن زيدون والبوصيري ومعظم كبار شعراء العربية ما زالت في حاجة لمقاربة تعتمد على مفهوم التناص وتستثمر إمكاناته وتضيف إليها.

صلاح فضل



أحمد شوقي في صباه

